المرأة في الحرب الكبرى

من مظاهر البسالة النسوية

حوادث واقعية

بقلم الخوري بطرس روفائيل

البسالة قوّة كامنة تبدو في الاخطار والاهوال ، فتحمل صاحبها على اعمال يندر وجودها وحدوثها في عامة الناس.

الرجل الباسل تصغرُ في عينيه عظائم الامور ، يسير في سبيله غير هيّاب ، ليس عنده للحياة قيمة ولا يعرف لها معنًى الا اذا أنجز ما رآهُ واجباً مفروضاً عليه.

الرجل الباسل قلبهُ قُدَّ من الصخر ، وعزمـهُ صُنع من الفولاذ ، وارادتهُ أُفرغت في قالب من الحديد ، تثبت امام العواصف وتَردي بالمهالك . لا شيء يثنيه عن قصده مهما صعب ، ولا يعوقه عائق مهما ثقل ، ولا يمنعه مانع مهما عظم .

تلك صفات لا نراها في المرأة غالباً ، لما هي عليه من دقة الشعور ، وتقلّب العواطف ، وحدّة المخيّلة المجسّمة للحوادث والمعظّمة للمفزعات.

على ان الحرب الكونية قد كشفت لنا القناع عن امور لم تكن لتدور في خلد احد ، وعرضت للعيان من المناظر ما لم يكن بالحسبان.

صلّبت المرأة قلبها ، وشحذت عزمها ، وشدّدت ارادتها ، وقيّدت مخيّلتها وحاسّاتها ، فبرزت الى ميدان البسالة وظهرت فيه بمظهر الابطال.

كتبت ملكة بلجيكا شهيدة الوطنية والامانة آية ذهبية لابنها ليوبولد قالت : « الشجاعة لا تقوم بالالفاظ الجميلة بل بالعمل » .

وقد صدق قولها هذا في كثيرات من الجنس اللطيف كبيرات وصغيرات ،

سواء أكنَّ من دُول الحلفاء ام من المانية والنمسة

أجل انهُ لوافرٌ عدد النساء اللواتي أبدين من الشجاعة والجلد وعلوّ الهمّة والاقدام ما جعل اسمهنَّ مجيدًا يُسطَرُ بالاعجاب والفخر في تاريخ الحرب الطاحنة الساحقة . فلُقّبنَ بالنساء البواسل كما يُلقّب الرجال بالابطال . وقد نقل الينا كُتّاب الجرائد والمجلّات اسماء عديدات منهنّ نكتفي بإيراد بعضها حبًا بالاختصار، لا خوفًا من الملل والاضجار.

***

في آخر شهر آب من سنة ١٩١٤ لعبت خمرة الانتصار برؤوس الالمان، فكانوا العدوّ الذي لا يلين ولا يشفق . مدافعهم لا تسكن ولا تسكت، بل تمطر فرنسة وابلًا من القذائف من ورائها الموت الاحمر، وقد نشروا اليأس والذعر في كل ارض اجتاحوها.

وفي صباح يوم اقبلت شراذم الجنود الفرنساوية مرتدّة على عقبها، يرافقها بعض نقّالات تحمل عددًا من الجرحى . دخلت مدينة سواسون، فهامت لمرآها قلوب السكان. وما مضت برهة حتى صدر امر السلطة باخلاء المدينة، فهُجرت في مدة ثلاثة ايام . ولم يبقَ من اهلها، وعددهم خمسة عشر الفًا، سوى الفين فقط . اكثرهم من ذوي العاهات، ومن الشيوخ والنساء والمرضى والجرحى الذين لم يتيسر نقلهم الى جنوب فرنسة، لان الالمان كانوا اطلقوا قنابلهم على الاسلاك الحديدية والمحطّة فخربوها.

وقفت حياة المدينة، وساد عليها السكون، وخيّم عليها الحزن والجزع . نزح الوجهاء ورجال الحكومة، وأخلوا مراكزهم ملقين على عاتق امرأة عبء المحافظة على النظام وادارة شؤون البلدة . هي السيدة ماشريز، رئيسة جمعية السيدات الفرنساويات، ومديرة المستشفى . قبلت ان تتحمّل تلك التبعة وقامت بأعباء وظيفة العمدة بكلّ نشاط . فشرعت تعتني بمداواة الجرحى والمرضى، وتهتمّ باعالة الشيوخ والعجائز . تقضي ليلها بالسهر، ونهارها بالحركة والعمل . ولمّا اشار عليها الجنود المتقهقرون بالرحيل، وأنبأوها بان العدوّ يتعقّبهم على بُعد بضعة كيلومترات، اسرعت فنقلت الجرحى منهم الى المستشفى، ووزعت

الطعام على الاصحاء قائلةً لهم : « ابتعدوا انتم واذهبوا بسلام . فاني قادرة على الدفاع وحدي عن المدينة وما فيها . »

ولم تمضِ برهة حتى دخل الالمان الى سواسون ، واقبل قائدهم ، الى مركز الحكومة طالباً مقابلة العمدة . فتقدّمت اليه السيدة ماشريز وقالت : ما تبتغي ؟

— مقابلة الحاكم .

— انا هو . واني لمسؤولة عن كل شخص وعن كل امر .

— اريد ان ارى الجرحى لعلّ بينهم جنوداً اصحّاء .

— زُرهم ، ولكني لا أدَعك تمسُّ واحداً منهم .

جرى حديث طويل ومناقشة شديدة بينهما أظهرت في اثنائها تلك السيدة من الغيرة ورباطة الجأش ما جعل القائد الالماني يستصغر نفسه امامها . ثم استطرد في الكلام وقال بجدّة :

— اريد ان تقدّمي لجنودي ، على سبيل الغرامة ، سبعين الف كيلوغرام من العلف . ومثلها من اللحم المقدّد . وعشرين الف كيلوغرام من التبغ والسيجار .

— ان تطلب مني القمر لاسهل من طلبك هذا . لان المدينة خالية من الزاد وما فيها يكاد لا يكفي الجرحى والعجزة من اهلها .

— واذا احرقتُ المدينة ودمّرتها فما تفعلين ؟

— لا أدَعك تفعل ذلك ، قبل ان يزهق الرصاص .

فوقف القائد مبهوتاً امام بسالة « حاكة سواسون » . وأخذ غضبه ، ورأى ان لا مندوحة له عن الاتفاق . فرضي ان لا يُمسّ المستشفى بسوء ، وان يدع الشيوخ والجرحى والنساء في راحة ، وان تُصان حياتهم ومنازلهم ، مقابل بعض حاجات تقدّمها للجنود ، وقد فرضت على نفسها غرامة تهبها من مالها الخاص .

هذا ما جرى . وهكذا حفظت هذه الباسلة مدينتها من الحريق والدمار . الى ان عادت الجنود الفرنسية . واستردتها في معركة الايسن الشهيرة ، التي فيها اصابت شظايا قنبلة السيدة ماشريز جرحتها جرحاً بالغاً . الا انها شُفيت رحمةً

بالانسانية فاستأنفت اعمالها الخيرية الفاضلة.

***

ويشبه هذه الرواية رواية اخرى جرت مع السيدة جوليا ديل في جريفيلر، في مقاطعة الوزيل. اشتهرت هذه السيدة ايضاً بشجاعتها واقدامها ودفاعها عن حياة كثيرين من الجنود والمرضى. وقبل اخلاء المدينة عهد اليها حاكم المقاطعة ادارة شؤون البلدة كعمدة لها. فلما دخل الاعداء اليها في شهر آب سنة ١٩١٤، أقبل قائدهم، والمسدّس في يده، فولج دار الحكومة وسألها: اين المحافظ؟

— انا هو.

— أعندكِ هنا جنود مختبئون؟

— كلا ليس عندي سوى الجرحى والمرضى.

— اريد ان اراهم.

— لا بأس. وانما لا اسمح لك ان تمدّ يدك الى احد منهم.

ولكن شتّان بين ما وعد وما فعل. فما وطئت رجلاه محالّ الجرحى الفرنسويين حتى امر بطرحهم على الحضيض. ووضع في مكانهم على الاسرّة ٢٥٨ جريحاً من رجاله. وأكره السيدة جوليا على ان تعتني بهم. فأذعنت واهتمت بمداواة جميع الجرحى، بينما كان جنوده ينهبون المدينة ويدمّرونها. ولم يبقوا منها الّا على خمسة بيوت. واما سائر ابنيتها فجُعلت طعمة للنار.

وفي شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٤ احتلّ الالمان بلدةً وعزموا ان يقتلوا اهلها ويحرقوها بالنار، لانهم وجدوا بعض الجنود المسلّحة مختبئين في منازلها. فقامت السيدة ماري ماسون، وهي في الثامنة والعشرين من عمرها، وقدّمت نفسها ضحيّةً عن السكّان كلهم. وقالت انها هي التي اخفت الجنود في بيتها. فأُخذت الى الساحة وأُطلق عليها الرصاص. فذهبت شهيدة الواجب والرحمة.

***

ولم تختصّ البسالة بعمر من الاعمار بل امتاز بها الصغيرات انفسهنّ. ولا يزال الفرنسويون يذكرون دنيز كارتيه، تلك البنيّة اللطيفة العواطف، ولم

تتجاوز التاسعة من سنيها . سقطت عليها قنبلة من احدى طيارات الالمان المحلقة فوق باريس فقالت وهي في النزاع : « ارجو منكم ان لا تقلقوا امي ، وقولوا لها ان جرحي خفيف.» ثم فارقت الحياة.

وفتاة اخرى في الرابعة عشرة من عمرها هامت بحبّ وطنها فخصصت لخدمته شذاها وعملها وُظفت في ادارة التلفون ولمّا دخل الالمان بلدتها ، فرّ الافرنسيون من امامهم . الا ان هذه الباسلة الصغيرة ظلت في مكانها تُكلّم اهل القرى المجاورة وتُعلمهم ان الاعداء قربوا فعليهم ان يكونوا على حذر. الى ان سقطت عليها قنبلة من قنابل العدوّ . فمزّقتها وهي قابضة على سماعة التلفون ، وهذه كلمتها الاخيرة : « احتاطوا لانفسكم ... ها قد اقترب العدوّ ... آه ... ها قد وقعت قنبلة ... » تلك القنبلة قطّعتها إرباً ارباً وقطعت كلامها.

وما نسي الانكليز الآنسة روبين، ابنة احد الجنود ، البالغة السادسة عشرة من عمرها ، ذُكر اسمها في الجيش مع من اتوا الاعمال الباهرة لانها اوصلت الى رئاسة اركان حرب المرشال فرنش رسم قناة لابسه ، وساعدت الجنود باستعلاماتها، وهي واقفة امام النار ، على تدمير المواقع الالمانية.

ومن عمر الآنسة روبين كانت الآنسة كلوتيلد بوركي ، حفيدة كبير رجال المطافئ في فرنسة . لما وصلت اورطة من المشاة الفرنسويين الى افريشي بالقرب من كلارمون في الواز ، وكانت وقائعها مع العدو في الايام السالفة قد افنت ذخرتها وأنهكت قواها ، فاعتنى السكان بافرادها وأووهم خارج القرية في رواق فسيح الارجاء ، تكفلت كلوتيلد بتموينهم . وكانت طول النهار ذاهبة آتية حاملة الخضر والفواكه . ولما اقترب الاعداء من تلك النواحي اسرعت الى الرواق ونبّهت الملازم فقال لها : « لا تضطربي يا بنيّتي فان طلبوا شيئاً فارسليهم الينا ونحن نجيبهم بما يلزم » . وما هي بضع دقائق حتى التقت الصبية في زاوية شارع بخيّالة منهم فاحاطوا بها ووجّهوا نحوها اسنة رماحهم ، وصرخوا بها : « قفي واصدقينا القول والا حذار حذار من مسدّس الملازم » .

وقفت كلوتيلد ونظرت اليهم نظرة من لا يخاف واجابت : « ساصدقكم الجواب ».

ـــ هل في القرية جنود فرنسويون ؟ اياك والكذب والّا ...

ـــ انا لا اخاف الوعيد والارهاب اجيبكم بما اعرف. لا جند هنا. »

قالت هذا وتباعدت. اما البروسيون فاخذوا في السير الى الامام. ثم التفت واحد منهم فجأةً وقال : « اتعرفين يا بنيّة ابن نجد شعيرًا وتبناً » ؟

فأبرقت عينا كلوتيلد وتبسّم ثغرُها ابتسامة خفيّة واجابت بهدوء كأنها تردي بالموت : « تجدون مطلوبكم هناك ... في طرف الشارع ... على الشمال ... في رواق ... »

قالت هذا واسرعت مُجدَّة وراء الجنود لترى نهاية الرواية وهي بطلها. جدّت وراء الظفر ... او الموت ... طرق أذنيها دويّ بنادق ثم صراخ فتجاديف فسكوت تبعه هتاف الانتصار. ركضت الى الرواق فاذا بسبعة جنود من الاعداء مطروحين على الحضيض مضرّجين بدمائهم. اما الباقون منهم فقد استسلموا ، ولم ينل الفرنساويين الا بعض جراحات خفيفة. فرقصت فرحاً وتنقّلت من واحد الى آخر مهنئة الجميع ، ثم قالت بصوت مؤثر : « اسألكم شيئاً واحداً لا تضرّوا بهؤلاء ولا تُلحقوا بهم شرًّا » .

ما اكبر من يجمع بين البسالة في الاخطار والحنوّ والرقة !